حد لتلك المشاكل البسيطة . فاجابهُ المستر سيورد بعد ان سمع اقوالهُ قائلاً " اتعلم يا دكتور بلس ان تركيا هي الدولة الوحيدة التي شاركتنا في العواطف والاحساسات في هذه الحرب الاهلية " . فلم يتمالك والدي بكاءهُ بل احنى رأسهُ وخرج من لندنة لانهُ فهم المراد

يجب ان لا تكتفي بارسال رسالة بسيطة من مجلس امتنا الى الامة العثمانية في هذه الساعة المهمة في تاريخها . يجب ان لا تكتفي بذلك ايها السادة والسيدات نحن ابناء هذه الجمهورية التي وان لم تنل حتى الآن كل غايتها من الحرية لكنها قد سارت في سبيلها شوطاً طويلاً في طريق لا يخلو من العقبات . ألا يجب علينا ان نرسل اليها رسالة يفهم منها اننا نؤيد تلك المدارس والمعاهد العلمية التي هي من وسائل العمران في البلاد العثمانية ان لم يكن لذلك اسباب تمنع ارسال رسالة مثل هذه

علمت ان كثيرين منكم هنا في وشنطون قد اهتموا بمشروع مجيد وهو انشاء مستشفى للعاملين في لبنان وهو اول مستشفى من هذا النوع في المملكة العثمانية وما من احد ينكر نفعهُ ولكني الفت انظاركم ايضاً الى المشروعات الاخرى التي لا تقتصر على الفوائد الصحية والعقلية بل تحاول ترقية المملكة العثمانية روحياً وادبياً ايضاً

واني اشكركم من صميم الفؤاد على اصغائكم اليَّ ولي رجاء واحد وهو انكم تزورون البلاد العثمانية فتشاهدون نور الحرية والاخاء والمساواة في تلك السلطنة السنية

ترجمة خطبة بوفون في صناعة الانشاء

تمهيد للمترجم

ان بوفون المشيء الفرنسوي المشهور وُلد سنة ١٧٠٧ وتوفي سنة ١٧٨٨ وقد كان احد الثلاثة الذين احرزوا لعصرهم في البلاد الفرنسوية اعظم ما يصل اليهِ من النفوذ الفكري من ملك ناصية البلاغة كما صرّح بذلك احد المؤلفين في كتاب لهُ في تاريخ البلاغة الفرنسوية . ومن آثاره المشهورة خطبة لهُ في صناعة الكتابة خطبها يوم انتظامهِ في عداد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي فصادفت من الاستحسان عند العلماء والادباء ما هي جديرة بهِ ولم تزل الى اليوم من آثار القلم المكرّمة ولن تزال فأحببت ترجمتها بالعربية ونشرها في مجلة المقتطف الشيخة عمراً وحكمةً والفتاة نشاطاً وهمةً فان تعريب مثل هذه الخطب المعبرة يعد من انفس ما يهدى الى الالباب

الخطبة

(١) قد البستموني رداء المجد الضافي يا دعوتموني اليكم ولتشتموني في سلككم . والمجد نعمة لا يصيب المرء منها الاَّ على قدر اهليته لها . لا ارى ان بواكير كتاباتي الخالية من تعلف الصنعة العاطلة من كل حلية الاَّ حلية الطبيعة تصلح اسبابًا كافية تجوزني على الانضمام الى ارباب العلم الاحياء المقام المخلين بهاء البيان الفرنسوي الذين طار صيتهم ودارت اسماؤهم على ألسنة الامم وستدور على ألسنة الاعقاب معقونة بمجد الثناء

لكن يا ايها السادة كانت لكم اسبابٌ أُخر اذ ازمعتم ان تشرفوني بالانتظام في المجمع الشريف الذي قد وسمتهُ منذ طويل بسمةٍ جديدة من الاجلال فانَّ ثنائي وان لم اكن منفردًا فيهِ لا يقلُّ رونقًا ولا بَهجة قوَّةً . لكن مَن لي ان اقوم بالذي تفرضونهُ عليَّ في هذا اليوم . ليس لي ان اقدم لكم الاَّ تمَّا لكم وهو بعض خواطر في صناعة الانشاء قد استفدتها من نفثات اقلامكم . فبطافة مؤلفاتكم والاعجاب بها قد عنَّت لذهني هذه الخواطر ويعرضني اياها على آرائكم الصائبة ستتجلي بحلية النجاح

(٢) لم يخلُ زمن من رجال يقدرون ان يقودوا الناس بقوَّة الكلام غير ان هذا لم يكن مع ذلك في القرون المستنيرة التي جاد فيها الانشاء وبلغ الكلام . فان البيان الحقيقي يستلزم شحذ القريحة وتهذيب العقل وبينهُ وبين ذلاقة اللسان بونٌ بعيد . فما ذلاقة اللسان الاَّ موهبة منحها الذين أُوتوا قوَّة الاهواء وطلاقة الالسنة وسرعة التخيُّل . فامثال هؤلاء شديدو الشعور والتأثر ويفصحون عن ذلك بقوَّة وينقلون الى قلوب الغير مثل ما يرد من التحمُّس والانعطاف بصورة آليَّة بحتة حتى كأنَّ الجسم يكلِّم الجسم وذلك لان حركاتهم واشاراتهم تتضافر وتتعاون وتتساوى فعلاً . والسواد الاعظم من الناس لا يحتاج في استمالتهم واقناعهم الاَّ الى لهجة حادَّة مؤثرة واشارات واضحة متكررة ولفظ رشيق طنان

واما القلة القليلة وهم اهل الرصانة ولطف الذوق ورقَّة الحسِّ فهم ايها السادة مثلكم لا يخلبون بالحركات ولا الاشارات ولا رنة اللفظ الفارغة . فهؤلاء لا بدَّ في اقناعهم من موادَّ ومعانٍ وبراهين كما لا بدَّ ايضًا من العلم بايرادها وتلوينها وتنسيقها فلا يكفي ان تطرب الآذان وتشغل الابصار بل لا بدَّ ان تؤثر في النفس وتمسَّ القلب بمخاطبة العقل . فما الانشاء سوى الترتيب والحركة التي تُبثُّ في المعاني فان أُحكم ربطها ووُثِّق ضمها جاء الانشاء رصينًا متينًا موجزًا . وان تركت تتعاقب ببطء تحت ظلِّ الالفاظ فمهما بلغت فصاحة الالفاظ فلا يجيء الانشاء الاَّ مشوَّشًا ركيكًا مطولاً

ينبغي للمنشيء قبل الاشتغال بنظم العبارة ان يشتغل بترتيب الخواطر الاولى والافكار الاصلية . فتهيّ عينَ لكل خاطرٍ او فكرٍ أصليّ محلاً تسعى لهُ ان يحصر الموضوع ويعرف مقدار اتساعهِ . ومتى قامت هذه الرسوم الأوليّة نصب عينيهِ تيسَّر لهُ ان يُعيِّن المسافة المناسبة بين الافكار الاصلية التي تتفرع منها الافكار التابعة والمتوسطة التي تملأ تلك المسافات . فبقوّة القريحة يمكن المرءَ ان يتصوَّر كل الافكار العموميّة والخصوصيّة بحقيقة معانيها ، وبدقة تمييز يفرّق بين العقيم منها والمثمر . وبالذكاء المكسوب بتعوُّد الكتابة يعرف اول الامر ما تكون نتيجة اعمال العقل هذه . فلا جرم ان الموضوع المتسع او المختلط ولو بعض الاختلاط يعزُّ على المرء ان يحيط بهِ بلحظةٍ او ان يدركهُ بامرٍ لاول توجيه النظر اليهِ . ويعزُّ عليهِ ايضاً ان يدرك كل متعلقاتهِ الاَّ بعد ان يطيل النظر فيهِ فينبغي والحال هذه ان يجيل ذهنهُ فيهِ كثيراً فان هذه هي الوسيلة الوحيدة الى اثبات افكارهِ وتوسيع نطاقها والسموّ بها . وكلما اعطاها بالتأمل مادةً وقوّةً سهل عليهِ ان يحسن تشخيصها بالتعبير عنها

على ان هذا الرسم ليس هو الانشاء كلهُ لكنهُ اساسهُ بما يعضد المنشئَ ويرشدهُ وينظم حركتهُ ويجري بهِ على سنن البلاغة . وبدونهِ فابلغ كاتب يضلّ السبيل ويجري قلمهُ بلا دليل فيكون كلامهُ مفطرباً وتكون معانيهِ غير منتظمة وصورهُ متنافرة . ومهما كانت الالوان التي يلوّن بها ناصعةً ومهما كانت المحسنات التي يرصّع بها التفاصيل جميلة فان كان مجمل كلامهِ مستهجناً او قاصراً عن ان يؤثر التأثير الكافي فالتأليف يكون ركيكاً . الاَّ ان القارئ مع العجز بفضل المنشيء يخالجهُ الظن ان ذلك المنشئَ خالٍ من الذكاء ومن هنا ترى الذين يكتبون كما يتكلمون لا يحسنون الكتابة وان كانوا يحسنون الكلام . وترى ايضاً الذين يسلمون لاول خاطر يخطر لهم فيهذّون بحماسةٍ لا يلبثون ان يعجزوا عن الاستمرار عليهِ

ولهذا السبب عينهِ لا يحكم الصحة بين المعاني الذين يخافون اضاعة ما يطرأ على العقل من الافكار المنفردة ولا الذين يكتبون الفصول والمقالات في الاوقات المتقطعة . ومن اجل ذلك ترى تآليف متعددة مكوَّنة من قطع لا يلتحم بعضها ببعض الاَّ بعد الجهد والعناء . وقلَّ منها ما سُبك بحرٍّ

ومع ذلك فهما اتسع الموضوع الواحد فلا يتعذر حصرهُ في مقالةٍ واحدة . فالقطع والوقف والفصل لا يسوغ ان يستعمل شيءٌ منها الاَّ عند اختلاف المواضيع او عندما يكون الكلام في امورٍ جليلة صعبة متنوعة فان القريحة تعترضها في اشباه هذه الامور العوائق الكثيرة وضرورات الاحوال فتقف حيرى

ألا وان تعدد التقسيم يضعف التأليف . نعم ان العبارة تظهر للعيون اوضح لكن غرض المؤلف يستتر تحت سجف الخفاء ولا يكون لهُ موقع في نفس القارىء فهو لا يشعر بهِ الاَّ باطراد المعنى وبحسن التحام الافكار وبسط متتابع وتدريج مستمرّ وحركة متساوية السرعة يضعفها او يلاشيها ايُّ انقطاع حصل

واحسن ما يجلي بهِ المقصود النظر في اعمال الطبيعة فهي كاملةٌ وما علة كمالها الاَّ ان كل عملٍ هو مجموع تام وهي تعملهُ على منهاجٍ ابديٍّ لا تحيدُ عنهُ . فالطبيعة تُعِدُّ سرًّا يزور نتائجها وترسم بمرَّة الصورة الاوَّلية لكل كائن حيٍّ وتبسطها وتكملها بحركة مستمرَّة وفي أجلٍ معيَّن وهو ولا ريب عمل مدهش . ولكنها المدهش حقيقةً هو ما يلوح عليهِ من الاثر الالهي

اما العقل البشريّ فليس في وسعهِ ان يوجد ولا أن يولِّد شيئًا الاَّ بعد تلقيحهِ بالخبرة والتأمل يعني ان معارفهُ هي يزور نتائجهِ . لكنهُ اذا قلَّد العظيمة في سيرها وفي عملها ترقَّى بالتأمُّل الى الحقائق العليا فاذا جمع هذه الحقائق وربط بعضها ببعض واذا افضى بهِ تدقيق النظر الى ان يؤلف مجموعًا وينهج في انشائهِ منهجًا واحدًا قرَّر على اسٍّ لا يتزعزع آثارًا خالدةً

انما لعدم رسم الموضوع واغفال التأمل فيهِ يرى ذو اللبّ انهُ في حيرةٍ فما يدري من اين يبدأ بالكتابة فتمنُّ لتكوم خواطر جمة دفعةً واذ لا يكون قد قابل فيما بينها ولا وصل بعضها ببعض يبقى في حيرتهِ ولكنهُ متى رسم رسماً وجمع ورتَّب كل ما للموضوع من المعاني الجوهرية فيعرف حينئذٍ متى ينبغي ان يشرع في الكتابة ويشعر بان النتيجة العقلية قد نضجت فيجتهد ان يجعلها تفرخ حتى لا يكون لهُ الاَّ لذة الكتابة اي ان التصوُّرات تفيض عليهِ والعبارة منقادة سهلة مندفعة بقوَّة الطبع . وحرارة التعبير تولِّد من هذه اللذَّة وتنتشر في كل الموضوع وتنفخ روح الحياة في كل عبارة وكل شيء يتزايد قوةً فالنجدة تعلو والاشباه تتلوَّن وتتحسَّن . والشعور اذا اقترن بالموضوع زاده وقوَّاهُ وعرَّفهُ بما قيل ما سيقال وعندئذٍ يعود الانشاء مفيدًا جليًّا

لاشيءَ اذهب بحرارة العبارة وجزالتها من رغبة الكاتب في ان يأتي في كل موضع بالجمل المستغربة طلبًا لاستلفات الانظار ولا شيءَ احجب لضياء الوضوح الذي تقضي البلاغة ان يكون منبثًّا في كل اجزاء الكتابة من هذه البداءة المتكلفة الناشئة عن جميع العبارات المتنافرة التي وان غشَّت وبهرت ابصارنا بنورها بضع دقائق لا نعتم ان تتركها في حنادس الابهام . وهذه الافكار لا تُقيض برئها الاَّ بالمضادَّة فان الكاتب لا يظهر الاَّ جهةً من الموضوع ويعرض عن سائر جهاتهِ

وفي العادة ان الجهة التي يختارها الكاتب يتسنى لهُ ان يفرغ اشعة عقلهِ عليها بحيث يكون قد ابعدها عن سائر الجهات التي من دأب العقل الصحيح ان يعتبر الاشياء بها (اي ان يجعلها مقياس الاشياء)

لا شيءَ اشد اجحافاً بالبيان الصحيح من استعمال هذه الافكار المكلفة وطلب هذه التصوُّرات الثانية المسترخية الفاقدة القوَّة الشبيهة بورقة من المعدن مطروقة لا تأخذ رونقاً ما لم تفقد الصلابة وكلما اكثر من وضع هذه النكت اللطيفة في كتابةٍ ما كما قلت فيها المتانة وخُسف نور البيان وشحب وجه التعبير . اللهمَّ الاَّ ان تكون تلك النكتة أُسَّ الموضوع وبعبارة اخرى الاَّ ان يكون موضوعهُ مبنيًّا على النكت ولم يكن لهُ غرض غير الفكاهة فحينئذٍ تصبح صناعة التعبير عن الاشياء الصغيرة أوعر مسلكاً من صناعة التعبير عن الامور الكبيرة

لا شيءَ اشدُّ معاندةً للجمال الطبيعي في الانشاء من التعبير عن الاشياء المألوفة بصورة غريبة اومهيرجة ولا شيءَ ينغِّص من الكاتب اكثر من ذلك وان كان يتفاهى في اجتلابهِ ما يتناسى فالناس لا يحبون بلاغةً خلافاً لما يظن بل يتقمون عليهِ انهُ قطع كثيراً من الزمان في تنضيد كلامهِ تنضيداً جديداً ابتغاء ان يخرج عن الاسلوب العامّ وهذا العيب هو عيب العلماء الفقهاء العقول فلهم من الكلم مادَّة غزيرة وليس لهم تصوُّرات فهم يشتغلون بالالفاظ ويتوهمون انهم نظموا التصوُّرات لانهم نسَّقوا الجمل . ويتخيلون انهم طيَّروا اللغة وهم قد افسدوها . لهؤلاء الكتَّاب ليس لهم انشاء وان شئت فقل ليس لهم الاَّ خيالهُ . فالانشاء ينبغي ان ينقش الافكار . وهم لا يقدرون الاَّ ان يخطُّوا الكلم . فبلاغة الكتابة تقتضي سعة العلم بالموضوع وتستدعي اطالة النظر فيهِ وذلك لكي يتبين الكاتب ترتيب افكارهِ ويكوِّن لها مجرًى وسلسلةً متصلةً كل حلقةٍ منها تمثل تصوُّرًا

ومتى شرع في الكتابة تعيَّن عليهِ ان ينظمها على حكم الرسم الاول بعضها وراء بعض غير سامح لنفسهِ ان يشذَّ عن ذلك ولا ساعٍ لها على تباين العبارة ولا معطلها حركةً غير الحركة المعينة للجمال الذي تجول فيهِ . فهذه هي جزالة الانشاء . وهذه هي الموجدة الوحدة والمرتبة السرعة وذلك هو الذي يكفي وحدهُ لاخراج العبارة مخرجاً صريحاً ساذجاً متساوي النمط واضحاً قويًّا منتظم السياق — فان انضمَّ الى هذه القاعدة الاولى التي تمليها التربية اللطف والذوق والتدقيق في تخير العبارات والتنبه الى ان لا تعمى الاشياء الاَّ تعريضاً واياءً فان تولر ذلك جزْل الانشاء — وان ضمَّ الكاتب الى ذلك ايضاً الحذر من حركة

الاندفاع الاولي وعدم المبالاة بكل ما لا فائدة لهُ الاَّ البهرجة الفارغة وضمَّ اليهِ المجافاة المستمرَّة للابهام والمزل جاء الانشاء رصيناً محكماً

واخلاصة ان من يكتب كما يفتكر و يقتنع بما يريد ان يثبتهُ للناس فهذا الاقتناع نفسهُ الذي هو تأدب في حقّ الناس وفي صحة القول يلاقي في النفوس من التأثير ما يجدر ان يلاقي مثلهُ

لكن بشرط لهذا الاقتناع الباطن ان لا يكون مقروناً بحماسة مفرطة وان يكون فيهِ من السذاجة اكثر مما فيهِ من الثقة ومن السواب فوق ما فيهِ من الحماسة فلهذا تدخيل لي ايها السادة وانا اقرأ مصنَّفاتكم انكم كنتم تخاطبوني شفاهاً بل كنتم تلقنوني العلم وكانت نفسي تتلقف حكمكم هذه وتحاول ان تطير وترتقي اليكم ولكن هيهات ذلك فان القواعد لا تقوم مقام القريحة فان لم تكن القريحة فما في القواعد غناء — ألا وان الكتابة الجيدة انما هي صحة فكر وصدق حسّ وحسن تعبير اي ان يجتمع في الكاتب العقل والحسّ والذوق . فالانشاء يقتضي اجتماع كل هذه القوى العقلية وتمرُّسها . فانما الافكار هي اسّ الكتابة واما تآخي الالفاظ فليس هو الاَّ امراً ثانوياً ومتولداً من شدَّة الحسّ فقط . فحسب المرء قليل من تحكيم السمع لجانب التنافر بين الالفاظ وان يمرّن سمعهُ ويحكمهُ بقراءة الشعراء والخطباء حتى يبلغ بهِ الطبع الى اتباع الايقاع الشعريّ والاساليب الخطابية . على ان الاتباع ما اوجد قطُّ شيئاً . ولذلك ليس اسّ الانشاء ولا لهجتهُ في تآخي الالفاظ فهو اكثر ما يكون في الكتابة الخالية من المعاني فما اللهجة الاَّ موافقة العبارة لطبيعة الموضوع فلا يجوز ان تكون مكرهة فهي تتولد طبيعياً من اسّ الشيء نفسهِ وهي شديدة العلاقة بالجهة العامة التي اليها يوجه الكاتب افكارهُ فاذا ترقّى الى التصوُّرات التي هي اشرف واذا كان الموضوع في حقيقتهِ جليلاً فاللهجة ترتقي الى هذا المقام نفسهِ فاذا استمرّت اللهجة في هذه الطبقة العالية فالقريحة تأتي ببلاغة تبثّ ضياء الوضوح — واذا استطاع الكاتب ان يضمّ الى جمال التنزويق قوَّة الوصف وفي الجملة اذا تهيأ لهُ ان يمثّل كل تصوُّر بعبارة حيَّة مبينة وان يصنع من سلسلة كل مجموع من التصوُّرات صورةً متناسبةً ومتحركةً فلهجة العبارة تكون عاليةً بديعةً لا مزوَّقةً فقط

ومن ثمَّ فالمثابرة على الكتابة انفع من حفظ القاعدة والامثلة افيد من القواعد لكن لا يؤذن لي ان أورد المقالات العالية التي اسكرني بلاغتها عند ما كنت اقرأ تبذكم فاني مضطرٌّ ان اقف عند ابداد الخواطر فانما كيف البليغة انما هي التي تجتاز الى الاعقاب

واما كثرة المعارف وغرابة الاعمال وحداثة المكتشفات فليست بالكفيلات الامينات بالبقاء على وجه الدهر. فاذا كانت التآليف التي تتضمنها لا تدور الاَّ على موادَّ تافهة او اذا كانت عبارتها منابذةً للذوق او ركيكةً او لا دلالة فيها على توقُّد القريحة فهي صائرة الى الهلاك. الا وان المعارف والصنائع والمكتشفات يسهل تناولها واقتفاؤها بل انها تكسب وتُحسن باستعمال ايدي اخرايانا في احذق من يد مكتشفها. وهذه الاشياء خارجة من الانسان. اما الانشاء فهو الانسان نفسهُ فيستحيل ان يُسلب كما يستحيل ان يُنقل ويمتنع ان يحرَّف او يزوَّر. فان كان في المقام العالي من الجزالة وحسن الديباجة حقَّ لصاحبهِ ان يعجب بهِ في كل عصر فلا يبقى على الدهر الاَّ الحقيقة. وليس الانشاء الجيد في الواقع الاَّ عدداً عديداً من الحقائق التي تبرز ببرُدِ التشبيب. فكل ما فيهِ من المحاسن العقلية وكل العلائق التي يتألف منها حقائق مفيدة بل ربما هي افيد للعقل البشري من الحقائق التي تكون اسَّ الموضوع بل هي اغلى قيمةً عندهُ

واما الانشاء البديع العالي فليس الاَّ في المواضيع الجليلة فالشعر والتاريخ والفلسفة كل منها موضوع لهُ جليل بل غاية في الخطارة اذ هو الانسان والطبيعة. اما الفلسفة فتصف الطبيعة وتصوِّرها. واما الشعر فيصفها ويحسنها ويصوِّر ايضاً الناس ويعظمهم بل يبالغ في وصفهم وهو الذي يوجد بقوَّة المخيلة الابطال والآلهة. واما التاريخ فلا يصف الاَّ الانسان ويصفهُ كما هو ومن ثمَّ فلهجة المؤرخ لا تصير عالية الاَّ حين يصف اعاظم الرجال او يذكر اعظم الحوادث وأكبر الاهواء واشدَّ الثورات وفيما خلا ذلك يكفي ان تكون العبارة رصينةً ذات فخامة

ولهجة الفيلسوف يمكن ان تصير عالية كلما أفاض في ذكر شرائع الطبيعة والكائنات بالاجمال والفضاء والمادَّة والحركة والزمان والنفس والعقل البشريّ والعواطف والاهواء وحسبهُ فيما عدا ذلك ان تكون جزلةً مزوَّقةً

واما لهجة الخطيب والشاعر فمتى كان الموضوع عظيماً ينبغي ابداً ان تكون عاليةً فهما القادران ان يضما الى عظمة الموضوع من التلوين والانسجام والتزيين ما يريدان. وعليهما قبل ان يصفا الموضوعات ويكبِّراها ان يفرغا في كل موضع ما أوتيا من قوَّة القريحة وذكائها

بيروت في ٩ آذار سنة ١٩٠٩ سعيد الخوري الشرتوني

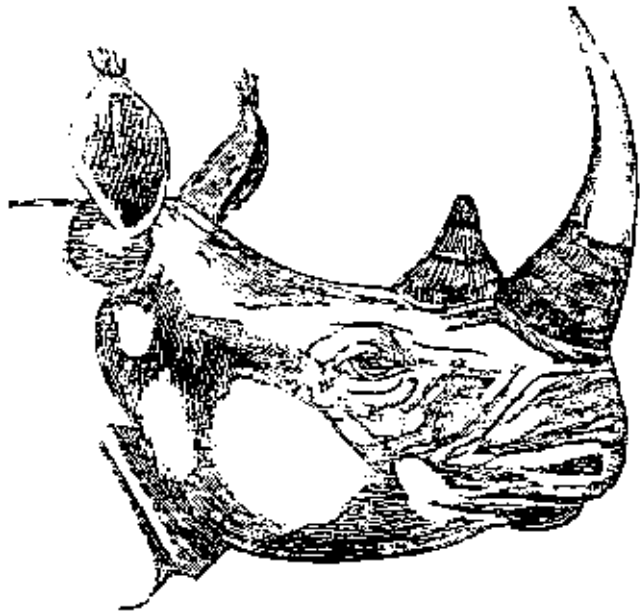

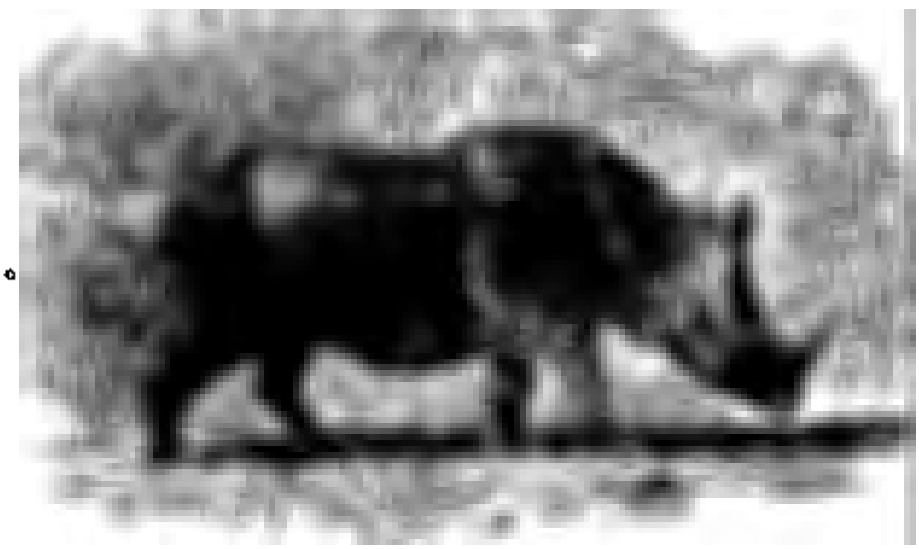

الخريش او الكركدن